

## صورة مجملة

صحبنا عمر بن الخطاب في حالات كثيرة تختلف فيها صور الرجال .

صحبناه في جاهليته وإسلامه، وفي سره وعلايته، وفي بيته وحكومته، وفي دينه وثقافته، وفي اتصاله بالله واتصاله بالناس . فإذا الصورة المحملة من جميع هذه الصور المختلفة صورة رجل عظيم من معدن العبقريّة والامتياز بين الناس على اختلاف العصور، وإذا هو صاحب مناقب وأخلاق من أنبل الصفات الإنسانية توافقت فيه على قوة نادرة وتلاقت فيه إلى غاية واحدة: وهي إحقاق وإدحاض الباطل، ووسمته جميعاً بسمة الجندية المجاهدة التي تحمي الحدود للناس وتحميها من الناس، وهو هو في طليعة من يحمي وفي طليعة من يحتمى على السواء .

ورسخت في طوبته خليقة المساواة في العدل حتى أصبحت كالوظيفة العضوية التي لا تنفصل منه، وحتى أصبح يتجرد من نفسه أو يجرد منها شخصاً آخر غربياً عنه لا فرق بينه وبين أحد في حدود الله وحرّماته، وتمكنت هذه الخليقة منه حتى جرت على ورحك يا ابن الخطاب؟ وماذا يقول عمر! وهذا فلان بن عمر وليس بفلان ولدى . . إلى أشباه هذه التجريدات التي تنبعث من خليقة التسوية بين جميع الناس، وبينهم وبين نفسه قبل جميع الناس .

وكانت فيه خشونة الأقوياء الصرحاء، ولكنه كما قال عارفوه من الصحابة "باطنه خير من ظاهره" أو كما قال فيه الصديق من كلام فحواه أن مبغضيه هم المبغضون للخير .

وكان له محبوبون من كراه الناس لا يعبدون بحبه حب أحد من أمثاله، فكن عبد الله بن مسعود يقول: "لو أعلم عمر كان يحب كلباً لأحبته . والله أنى لأحسب العضاه<sup>(١)</sup> قد وجدت فقد عمر ."

(١) جمع عضامة وهو شجر كبير له شوك . ووجدت، أى علمت .

والغالب في أمثلا عمر من أصحاب الطبائع القوية المهيبة أن تحجب عنهم الهيئة ألفة الغرباء الذين لا يختلطون بهم في السير والعلانية، بل تحجب عنهم ألفة الأقربين في كثير من الأحيان، لأنهم من تفردهم بالصراحة والحق في عزلة دائمة بين ألصق الناس بهم وأقربهم إليهم:

أعداك أنس المجد من كل وحشة فإنك في هذا الأنام غريب

ولكنهم لا يكرهون إلا عن خطأ أو حسد لئيم. وكان عمر على التخصيص ممن لا يثيرون شعور الكراهية في قلب إنسان، لأنه كان على عظم "شخصيته" مبراً من العنصر الشخصي، في معاملة الأصدقاء والخصوم. وإنما ينجم العداوة الشديد من الإحساس بهذا "العنصر الشخصي" ومقابلته واصطدام وانتقام.

فالذين كانوا يذوقون إنصاف عمر كانوا يستمرثونه ويحبونه، والذين كانوا يذوقون عقابه كانوا لا يشعرون بعمر بن الخطاب معاقبا صوالا عليهم، وإنما يشعرون بميزان الشريعة منصوبا على رءوسهم، يتساوون فيه وعمر لو وجب العقاب. فلا موضع هنا للضعينة ولا لاصطدام النفس بالنفس واحتدام الحزارة بالحزارة.

ولهذا الخصلة ذكره بالحب والإعجاب من ابتلوا بعدله أشد ابتلاء، وانطبعت نفوسهم على الدهاء أو الهجاء.

فعمرو بن العاص ومعاوية كانا يثنيان عليه وشد ما ابتليا في حياته بضربات عدله وهيئته، والخطيئة أهجى الشعراء وأبخلهم بالثناء كان رفاقه يذكرونه اسم عمر بعد موته فيرتغب ثم يهدأ فيقول: يرحم الله ذلك المرء! . . . ويشنى عليه.

وقد قال عمرو بن العاص إذ رأى عمر يبكي لاستعطاف الخطية إياه في سجنه: ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أعدل من رجب يبكي على تركه الخطيئة!

وقد شاء القدر أن يموت عمر قتيلا فلا يكون قتله دليلا على بغضاء "شخصية" أو خلة ترتبط بحياته الفردية. فإنما البغضاء "الوطنية" هي علة التآمر على قتله بين المغلوبين في ميدان القتال على التحقيق، وهكذا كل بغضاء بقيت بعد موته مقرونة بذاكره فإنما في أصلها "بغضاء وطنية" كامنة وراء الدعاوى الطائفية والمجادلات المذهبية، وإن تطاولت الأيام.

فالمعلوم أن عمر مات بطعنات من خنجر فيروز "أبي لؤلؤة" من سببايا الفرس بالمدينة، وأن فيروز هذا جاء عمر قبل مقتله بأيام فشكا إليه مولاه المغيرة بن شعبة لأنه فرض عليه خراجا درهمين في كل يوم، فسأله عمر عن صناعته فأنبأه أنه "نجار نقاش حداد". فلم يستكثر عمر هذا الخراج على من يصنع هذه الأعمال، وقال له: قد ابلغنى أنك تقول: "لو أردت أن أمل رحي تطحن بالريح فعلت" وطلب إليه أن يصنع رحي على هذه الصفة، فقال له: لئن سلمت لأعلمن لك رحي يتحدث بها من بالمشرق والمغرب... ثم انصرف وهو يقول: "وسع الناس عدله غيرى!". فقال عمر لسامعيه: لقد توعدنى العبد آنفا. ولم يؤاخذ بهذا الوعيد، بل كان من نيته أن يلقي المغيرة ليخفف عن مولاه.

هذا هو السبب الظاهر الذى لا يستر ما وراءه، لأن أبا لؤلؤة لم يكن إلا منفذاً للكيد الذى اتفق عليه كثيرون، وقد روى عبد الرحمن بن أبى بكر أنه رأى هذا الرجل مع الهرمزان وجفينة قبل مقتل عمر جالسين يتحدثون. فلما فاجأهم قاموا وقوفا فسقط بينهم خنجر له رأسان نصابه فى وسطه، وهو الخنجر الذى حمله فيروز لقتل عمر وقتل نفسه أن أخذ بفعلته.

والهرمزان أمير زالت عنه الإمارة بعد ذهاب الدولة المجوسية، وجفينة من أهل الأنبار وهم على ولاء للفرس، وأبو لؤلؤة فارسى الحقد على المسلمين لم ينس أسره ولم يزل كلما جىء إلى المدينة بأسرى من وقعات فارس مسح رءوسهم وتوعد المسلمين أجمعين.

وقد كان شاركهم فى هذه المؤامرة يهودى مغلوب تظاهر الإسلام وهو المسمى بكعب الأحبار. ولعله أراد أن يكسب سمعة العلم بالأسرار من علمه بالمؤامرة، فذهب إلى عمر قبل ثلاثة أيام من مقتله يندره أن يختار ولى عهده لأنه ميت فى ثلاثة أيام... فسأله عمر: وما يدريك؟ قال: أجد له لتجد عمر ابن الخطاب فى التوراة؟". فأشفق الرجل أن ينكشف دجله وقال: بل أجد صفتك وحيلتك وأنه قد فنى أجلك. ثم كرر له النذير مرتين فى اليومين التاليين.

فعمر إنما ذهب رحمه الله شهيد مؤامرة من أعداء الدولة الإسلامية لا شك فيها، وما كانت قصة الخراج إلا الستار الذى يتوارى به المتآمرون بالمدينة والبلاد الأخرى مخافة القصاص الذى يحيق بهم إذا جهروا بما دبروه، أو جهروا بالعلة التى من أجلها تربصوا بذلك التدبير.

إن مقتل عسر أخرى أن يعد جزءا من أكبر أجزاء سيرته ولا يحسب نهاية نختم تلك السيرة دون أن نضيف إليها.

فقد تمثلت فى مقتله مزاياه الكبار التى تمثلت فى جلائل أعماله وعظائم مساعيه وخصاله، فكان عمر الصريع قدوة فى الشجاعة وتقديم الواجب والإيثار على النفس ومحاسبة الضمير وسداد التدبير. كما كان فى أصح ساعاته وأسلمها للعمل والتفكير وكان رضى الله عنه ينظر إلى الحياة كأنها رسالة تؤدى ما استطيع أداؤها ثم لا معنى لها إذا فزع من رسالتها أو حيل بينه وبين أداؤها. فبعد الحاجة التى مات على أثرها أناخ بالأبطح ثم كوم من البطحاء التى عليها طرف رداؤه واستلقى عليها ورفع يديه إلى السماء، ودعا الله: "اللهم كبرت سنى وضعفت قوتى، وانتشرت رعيتى، فاقبضنى إليك غير مضيع ولا مفرط. اللهم ارزقنى الشهادة فى سبيلك، واجعل موتى فى بلد رسولك".

ومضت أسابيع فخرج يوماً قبيل الفجر يوقظ الناس ثم يسوى الصفوف للصلاة، فلم يؤم الناس حتى فاجأه القبائل بطعنتين إحداهما القبائل بطعنتين فى كتفه والأخرى فى خاصرته، وقيل ثلاث طعنات إحداهن تحت السرة وقد خرفت الصفاقين<sup>(١)</sup> قضى به نخبه رحمه الله، وقيل بل ست طعنات منها تلك الطعنة القاتلة.

فلم تشغله هذه الطعنات المفاجئات عن الصلاة، ولم يفكر أن يشغل المسلمين بمقتله عن أداء فريضتهم فى موعدها، وسأل عن عبد الرحمن بن عوف ليصلى بالناس.

ثم جعل يغنى عليه ولا يبيته إذا دعوه، حتى قال عار فيه: إنكم لن تفرغوه بشيء مثل الصلاة إن كانت به حياه.. فنودى: الصلاة.. الصلاة! فلما سمع النداء فتح عينيه وفاه بكلمات متقطعات: "الصلاة! ها.. الله. إذن." ثم قال: لاحظ فى الإسلام لمن ترك الصلاة.

ولم يهمه من قتله بعد أن حمل إلى منزله إلا أن يعرف المظلمة كان قتله أم ليغنى من القاتل؟ فلما علم أنه أبو لؤلؤة قال: ولم قاتله الله وقد أمرت به معروفًا ثم حمد الله قاتلاً: "الحمد لله الذى لم يجعل قاتلى يحاجنى عند الله بسجدة له قط. ما كانت العرب لتقتلنى."

وهمه بعد ذلك أن يلقى حسابه عند الناس وهو وشيك أن يلقى حسابه عند الله. فأمر ابن عباس أن يخرج إلى المهاجرين والأنصار يسألهم: أعن ملاً منكم ومشورة كان هذا الذى أصابنى؟ فصاحوا معلتين: "لا والله. ولو وردنا أن الله زادنى فى عمره من أعمارنا".

واشتد البكاء كأن الناس لم يصابوا بمصيبة، فنهاهم أن يبكوا عليه.. ثم سقوه نقيع التمر فخرج من الجرح أحمر كما هو فلم يعرفوا آدم هو أم النقيع

(١) صفاق البطن وهو الجلد الباطن عند سواد البطن.

خرج بلونه . . فسقوه اللبن فخرج أبيض يشوبه صديد، فأشار عليه الطيب أ،  
يعهد . . فقال:

"لو قلت غير هذا لكذبتك".

وكان قد أنكر على الناس أن يجيئوه بالطيب قبل أن يفرغ من وصاياهم:  
ويحكم أيها الناس، أنظر في أمر نفسى قبل أن أنظر في أمور المسلمين؟ . .  
فلما قال الطيب مقالته أخذ في تدبير المهم من شئون الدولة وأولها الخلافة،  
فجعلها شورى ليستقر بها القرار ما استطيع، ونجا بأهله منها وهو يقول:  
" . . أما لقد جهدت نفسى وحرمت أهلى، وأن نجوت كفافاً<sup>(١)</sup> لا وزر ولا  
أجر إنى لسعيد".

وهو فى هذا كله لا يحالف ديدنة من صراحة ولا يكتم طبيعة أهل  
الفناء من حب الحياة، ولا يخفى "إن للحياة لنصييا من القلب إن للموت  
لكربة!" ولكنها لم تمنعه قط أن يعطى الحق حيث وجب للموت أو للحياة.

فلما فرغ من شئون الدولة نظر فى أمر دينه فأبى أن يدفن قبل أن يضمن  
سداه، وأقبل يطمئن فى جوار صاحبيه وقد فرغ من حقوق الدنيا. فدعا بابنه  
عبد الله ينطلق إلى عائشة أم المؤمنين ويقرئها منه السلام . . ونهاه أن يسميه  
عندها أمير المؤمنين لأنه ليس اليوم للمؤمنين أميرا . . ثم يستأذنها أن يدفن إلى  
جوار صاحبيه يعنى النبى عليه السلام وخليفته الصديق.

ووجدها عبد الله تبكى فسلم عليها واستأذنها فأذنت وقالت:

كنت أريده لنفسى، ولأوثرنه به اليوم على نفسى!

فلم يكفه هذا حتى يستوثق كله الاستيثاق من رضاها، فعاد يخاطب  
ابنه: "يا عبد الله بن عمر بن الخطاب، فإن أنا قبضت فاحملونى، وإن

(١) نجوت كفافاً: أى، لالى ولا على.

ردتني فردني إلى مقابر فقل: يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذنت لي فأدخلني، وإن ردتني فردني إلى مقابر المسلمين، فإنني أخشى أن يكون أذنها لي لمكان السلطان".

قال شهود دفنة: "فلما حمل فكان المسلمين لم تصيهم مصيبة إلا يومئذ". . . فارق الدنيا أعدل العادلين وهو مظلون أو منهم بظلم، فما دلها شيء على عظم فضله ولا عظم الحاجة إلى العدل فيها كما دلها هذا الختام.

\*\*\*